# بعد النص القرآني عن "التناصية"

**محمد زبير عباسي**

**مدخل:**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وبعد:

منذ أن شرعت مناقشات لسانية ومعارضات لغوية، وعاد تصور الجملة الناقصة والتامة والكلام المفيد وغير المفيد ـ وهو من خصائص اللغة العربية ـ مذهلا تجاه المشاكل الفلسفية النصية التي ظهرت في الأكاديمية الغربية بحيث حل "النص" الغربي محل "الكلام" العربي، وأخذت "الجملة" خطوط "النص" منجمًا، ومن قبل كان "النص" واسع النطاق، فأكل جميع دوائر الكلمات والشفرات والشظايا اللغوية وغير اللغوية، ومن ثم دخلت الأنساق المقامية، غير اللغوية في النص بحيث أصبحت جزءا منها.

ويتضح للقارئ من ملاحظة دقيقة لمفهوم النص العربي أنه يرجع في ذاته إلى الجملة العربية، والجملة في تحييز وجودها يقتصر على منهج السماع والقياس، ومن خلال التقاء هذين المطلبين يتضح أن الجملة تأخذ شكلها من الكلمة المستعملة (المعجمية)، والكلمة المعجمية تؤدي مفهوما صحيحا من خلال ارتباطها بالنحو العربي، وهذه القضية تكاد تتضح أكثر وضوحا إذا لاحظناها على ترتيب مفهومي النص: الضيق والموسع، أو القديم والجديد.

المفهوم الضيق أو المفهوم القديم للنص يدرس الجملة العربية من خلال منهج السماع والقياس، وهذا المنهج ينتهي إلى الكلمة والجملة والكلام والنص.

المنهج ⟵ السماع والقياس = الكلمة/ الجملة/ الكلام/ النص

والسماع كما قال الإمام السيوطي: "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته"[1]. وهذا الثبت في

---

١- جلال الدين السيوطي، **الاقتراح في علم أصول النحو**، قرأه وعلق عليه: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، ش سوتير، الأزاريطة، ش قنال، الشاطبي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٧٤.

النقل المسموع يعني الاعتماد على كل ما سمع من العرب الفصحاء. ولا يخص ذلك مفردا دون مفرد آخر، أو جملة دون جملة أخرى، إنه يشمل جميع الكلام المنقول أو النصوص التي يحتج بها. وهذا المعنى للسماع ومداخلته الدقيقة في تنظيم مفهوم "النص" العربي يعني أن له حدودا وقيودا، لا مفر للنص منها.

أما القياس فيقول الإمام السيوطي في تعريفه: "هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"[٢]. والكلام العربي يتكون من الأجزاء التالية: المعجم + النحو والصرف. وأما المعجم فيدل على الشفرة المفردة (المعنى القاموسي) والنحو يدل على الشفرة المركبة (المعنى والدلالة المقصودة منه). ثم علماء العربية قسموا الجملة إلى قسمين رئيسين:

١- الجملة التامة التي تدل على معنى يريد المتكلم الإخبار عنه، يمكن للسامع (المخاطب) تصديقه أو تكذيبه، وقد يصدق الكلام على هذا المفهوم، كما أشار إليه ابن الأنباري في تعريفه إياه قائلا: "فإن قيل: ما الكلام؟ قيل: ما كان من الحروف دالا بتأليفه على معنى يحسن السكوت عليه"[٣].

٢- الجملة الناقصة التي لا تدل على معنى مفيد فائدة يحسن السكوت عليه، ويصدق على هذا المعنى مصطلح "الكلم" الذي شرحه ابن الأنباري مبينا الفرق بين الكلم والكلام قائلا: "فإن قيل: فما الفرق بين الكلم والكلام؟ قيل: الفرق بينهما أن الكلم يطلق على المفيد وعلى غير المفيد، وأما الكلام فلا ينطلق إلا على المفيد خاصة"[٤]. وذكر الدكتور عبد العزيز حمودة مفهومي النص القديم والجديد عند دريد قائلا: إنه يرى للنص مفهومين: قديم وجديد.

"المفهوم التقليدي الذي يرى النص واضح المعالم والحدود، نص له بداية ونهاية، له وحدة كلية ومضمون يمكن قراءته داخل النص، له عنوان ومؤلف وهوامش، وله أيضا قيمة مرجعية حتى إن لم يكن محاكاة للواقع الخارجي. كل هذا تمثل حدود النص"[٥].

ثم حدث ما حدث من انقلاب جذري في مفهومه في الستينات أي مع بداية استراتيجية التفكيك: "ما حدث، إذا كان قد حدث، هو عملية اجتياح... أبطلت كل هذه الحدود والتقسيمات

---

٢- المرجع السابق، ص ٢٠٣.

٣- أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، **أسرار العربية**، عُني بتحقيقه محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ص ٣.

٤- المرجع السابق، ص ٣.

٥- عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٣٦٦.

وأرغمتنا على توسيع المفهوم المتفق عليه... لما استمر في تسميته "نص" لأسباب استراتيجية... "نص" لم يعد منذ الآن جسما كتابيا مكتملا، أو مضمونا يحده كتاب أو هوامشه، بل شبكة مختلفة، نسيج من الآثار التي تشير بصورة لانهائية إلى أشياء ما غير نفسها، إلى آثار اختلافات أخرى. وهكذا يجتاح النص كل الحدود المعينة له حتى الآن"(٦).

فالجملة قبل ظهور التعالق الجدلي بين اللغة والكلام كانت تدرس الملامح اللغوية للغة على سبيل الجذر والأصل، بينما كانت تدرس الملامح الدلالية غير اللغوية للغة على سبيل الأحوال الطارئة عليها، واللغويون القدامى ما أجمعوا على أن تلك الأداءات الاجتماعية والنفسية والتاريخية والثقافية تعتبر جزءا من الصورة الملموسة للغة بل تناولوها تحت المساعدات المقامية والروابط السياقية والقرائن الحالية.

القياس والسماع يعني التمازج والتلاصق بين الكلام أو النص الحاضر (اللاحق) والكلام أو النص الغائب (السابق) بحيث ينتحي ثانيهما سمت الأول في تصرفه من إعراب وغيره، ونعما ما قاله أبو سعيد الحكم الفرخان (ت ٥٤٨هـ) في المستوفى: "النحو صناعة علمية، ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى"(٧). ومن الطبعي أن المراد بالصيغة هنا الألفاظ، والصورة والمعنى. وتكون الجملة مركَّبة من ثلاثة أجزاء:

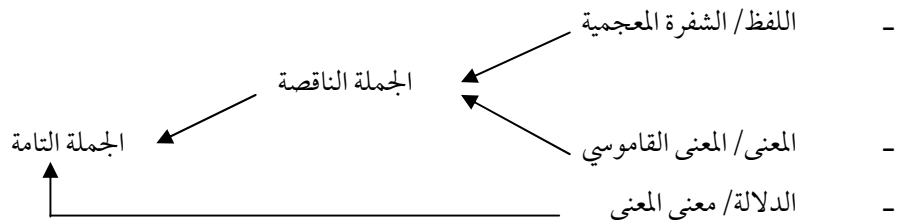


فالمعنى القاموسي هو المفهوم من ظاهر اللفظ أو الذي يتوصل إليه من غير واسطة، أما الدلالة (معنى المعنى) فهو ما لا يتوصل إليه إلا بإحاطة سياق اللفظ والمعنى (النص) والغرض من تأليفهما، وينص الإمام عبد القاهر على تحديد مفهوميهما قائلا: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن "زيد" مثلا بالخروج على الحقيقة، فقلت: "خرج زيد"، وبالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق"، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت

٦- المرجع السابق، ص ٣٦٦- ٣٦٧.

٧- **الاقتراح في علم أصول النحو**، ص ٢١.

لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض... فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و"معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر". وعلى هذا القياس أن دلالات الألفاظ على المعاني الثواني هي لا تكون "حتى يكون هناك اتساع ومجاز وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخر"(٨).

قصد الإمام عبد القاهر بـ: "دلالة المعنى أو معنى المعنى أو المعنى الثاني للمعنى الأول" ما لا يتأتى عفويا (بدهيا) بل يحتاج إلى التلاؤم اللفظي والمعنوي والسياقي، وسماه الإمام بـ: "الحال" قائلا: "إذا قال: "رأيت أسدا"، ودلك الحال على أنه لم يرد السبع، علمت أنه أراد التشبيه... (٩) والحال هو القرينة لدى علماء العربية، وقد عدد الدكتور محمود السعران ظواهر سياق الحال أو ماجريات الحال قائلا: "إن "سياق الحال" أو "الماجرى" هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي (أو للحال الكلامية)، ومن هذه العناصر المكونة للحال الكلامية:

١- شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما "الثقافي" وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع ـ إن وجدوا ـ وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على "الشهود" أم يشاركون من آن لآن بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

٢- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع السياسي، وكمكان الكلام إلخ. وكل ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه.

٣- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالاقتناع، أو الألم، أو الإغراء، أو الضحك إلخ"(١٠).

تقف دوائر هذه العناصر إلى حدود خارج الكلمة أو الجملة، بمعنى أن الكلام المؤلف من

---

٨- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، **دلائل الإعجاز**، قرأه وعلق عليه: أبو فهر، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، دار المدني بجدة، ط ٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٢٦٢-٢٦٣.

٩- المرجع السابق، ص ٢٦٢.

١٠- محمود السعران، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص ٣١١، تمام حسان، **مناهج البحث في اللغة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٥١-٢٥٢.

الكلمات والجمل تستفيد من سياق داخلي وسياق خارجي عن الكلام، بينما تعتبر نفس السياقات التي تولد الكلمة أو الجملة أو النص أو ما تتولد منها الكلمة أو الجملة أو النص من ذات الكلم والكلام.

وهكذا تحدث الدلالة المطلوبة من التركيب فيه تأليف وتنسيق وتنظيم أو تآلف وتناسق وتماسك وانتظام وانسجام واتزان، هذه الألفاظ ليست مقصورة على نطقها بل إنها سبيل انفتاح الرمز النصي وهو التداخل والتلاقح والتناص والتثاقف إلخ. هذه العناصر كلها تشكل اللغة لعلاقتها الوثيقة بالبيئة والمجتمع، ومن ثم بدأت اللغة العربية تعتمد في نحوها وإعرابها على السماع والقياس، ويقول أبو النصر الفارابي(١١) عن كلام القبائل العربية التي نقلت عنها اللغة العربية فيحتج بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيتهم: "وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة، من أرض العراق، فتعلموا لغتهم والفصيح منها، من سكان البراري منهم، دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم، ومن أشدهم توحشًا وجفاء، وأبعدهم إذعانًا وانقيادًا، وهم قيس وتميم وأسد وطيء، ثم هذيل، فإن هؤلاء معظم من نقل عنه لسان العرب، وأما الباقون فلم يؤخذ عنهم شيء، لأنهم كانوا في أطراف بلادهم، مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة، والهند، والفرس، والسريانيين، وأهل الشام، وأهل مصر"(١٢).

وإلى هذا الحد لم يشر علماء العربية تماما إلى أن عناصر غير لغوية للكلام نحو السياق البيئي والاجتماعي والتاريخي والثقافي والشعبي وهلم جرا، يحسب جزءا منه، إنها من العناصر التي تكتسب اللغة وجودها منها، فالكلام لديهم يعني الجملة التامة والناقصة، وهذا الإتمام والنقص يعودان إلى ذات الجملة، ويتم بناء الجملة بترتيب الشفرات المعجمية وتنسيقها وتنظيمها، يقول الإمام عبد القاهر في شرح "النظم" يتحد في الوضع ويدق في الصنع: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين. وليس لما شأنه أن يجيء

---

١١- الفارابي هو أبو النصر محمد بن محمد ابن طرخان التركي الحكيم (ت ٣٣٩هـ)، وهو من أكبر فلاسفة المسلمين. وذهب بعضهم الآخر إلى أن المقصود من الفارابي في قول السيوطي هو أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت٣٥٠هـ) خال الجوهري صاحب **الصحاح**، وأن السيوطي أخطأ في الكنية، حيث كناه بأبي نصر، إذ ليس من المعقول أن يقوم بهذه الدراسة اللغوية الواعية غيرُ لغويٍّ متخصِّصٍ. انظر: **الاقتراح في علم أصول النحو**، ص ١٠٠.

١٢- **الاقتراح في علم أصول النحو**، ص ١٠٠.

على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى، وأنحاء مختلفة"(١٣).

أما المفهوم الموسع أو النص الجديد فإنه يعود في حد ذاته إلى النص السياقي، ولا تقتصر دائرته على النص الغربي الذي يتكون من المنهج البنيوي التفكيكي، وهذا المنهج يتجسد عند دي سوسور(١٤) من الخطين: الرأسي والأفقي أو التوافقي والتعاقبي. إذا تركب الكلام (النص) من ربط عناصر هذين الخطين، فينتج دلالة المزج والهدم والبناء والدمج للكلام، كل نص يكون بناء جديدا لبناء قديم، كل نص يكون عملة ذات وجهين: الجديد والقديم، وهذا التمازج والتلاقح والتداخل يتحقق من إطار اللغة + الكلام، ومنه يتجسد النص، ولعل الكلام يكاد يتضح بكثير مما تقدم إذا تمت ملاحظة تلاقي الجانبين من خلال

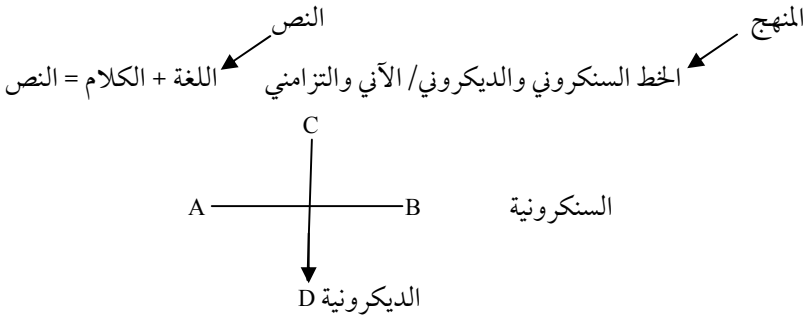


يقول دي سوسور في توضيح هذين الخطين:

"(١) بين محور التوافق AB الذي يمثل العلاقات بين الأشياء المتزامنة، وقد جرد عنها التداخل الزمني: (٢) محور التعاقب CD الذي ندرس فيه شيئا واحدا فقط في لحظة واحدة، ولكن تظهر عليه أشياء المحور الأول مع تغييراتها"(١٥).

هذان الاتجاهان الرأسي والأفقي على الترتيب أعلاه يعنيان أن نقطة البداية في التطور والتحول

---

١٣- **دلائل الإعجاز**، ص ٩٣.

١٤- فرديناند دي سوسور (١٨٥٧-١٩١٣م) أبو اللسانيات الحديثة (المعاصرة)، ولد في جنيف، وحصل على درجة الدكتوراه من لايبزك عام ١٨٨٠م، وأصبح أستاذا لعلم اللغة العام في عام ١٩٠٧م في جامعة جنيف، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته. انظر: فرديناند دي سوسور، **علم اللغة العام**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلبي، سلسلة كتب تصدر عن دار آفاق عربية، الأعظمية، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٣، مقدمة المترجم. وفي تفاصيل منهج دي سوسور النظري ومنزعه النقدي اللغوي راجع: روي هاريس وتولبت جي تيلر، **أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير**، تعريب: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٢٥٥ وما يليها.

١٥- **علم اللغة العام**، ص ٣٧-٣٨.

تكون في قمة الخط الرأسي، ثم يتجه هذا الخط إلى أسفل متقدما مع الزمن، حتى يصل إلى وقتنا الحاضر، فالدوال تكون متطورة ومتحولة في هذه المرحلة التاريخية، ولا تكون مستقرة بينما الخط الأفقي فيكون ذلك مليئا بخطوط مماثلة مستقرة، لا تتعدى زمنا دون زمن.

ويقول الدكتور تمام حسان بصدد شرح التحول والتطور في أحد الخطين في الرسم أعلاه: "ولعل القارئ قد لاحظ أن الخط الأفقي غير ذي سهم في طرفه، حيث اصطلحنا على أن السهم دليل على قصد التنبيه إلى وجود حركة، وفي أي مرحلة لغوية تؤخذ لتدرس سنكرونيا لا توجد حركة ولا تطور ولا تحول بل تعرض الحالة ثابتة ثباتا تاما تمشيا مع هدف الدراسة: واللغة المعينة في رأي دي سوسور "نتاج اجتماعي لملكة اللغة ومجموع حالات عرفية ضرورية يكيفها المجتمع ليسمح لهذه الملكات الفردية بالعمل". فاللغة إذا ملكة أو طاقة أو استعداد أو سمها ما شئت، ولكن اللغة المعينة نتاج جمعي لهذه الملكة، ومجموعة من حالات التعارف الضرورية مكيفة اجتماعيا لتسمح بالعمل للملكات الفردية"(١٦).

لا يصح إهمال الزمن من تجسيد الحقائق اللغوية، وإلا فتصبح تلك الشظايا اللغوية مجرد ضوضاء، ولذلك تتوافق اللغة في منتوجه النحوي وتتعاقب في منتوجه الدلالي، يقول دي سوسور عن ذلك:

"وإذا نظرنا إلى اللغة ضمن الزمن وأهملنا مجتمع المتكلمين ـ تخيل فردا لوحده يعيش عدة قرون ـ ربما لا نلاحظ أي تغيير: (أي) لا يؤثر الزمن في اللغة. وعلى العكس، إذا أخذنا في الاعتبار مجتمع المتكلمين مع إهمالنا للزمن، عندئذ لا نلاحظ أثر القوى الاجتماعية في اللغة.

فاللغة لم تعد حرة، (ومن أجل ارتباطها الوثيق بالزمن) إنه يسمح للقوى الاجتماعية العاملة في اللغة أن تعمل عملها. وهذا يعيدنا إلى مبدأ الاستمرارية، الذي يلغي الحرية. ولكن الاستمرارية تشتمل بالضرورة على التغيير، على درجات مختلفة من التغيير في العلاقة بين المدلول والدال"(١٧).

وبرغم هذا التوافق السياقي والتعاقب السياقي إن المدلول عند دي سوسور يكون صورة صوتية ذهنية ينسج المتكلم على طرازها دون الأخذ في الاعتبار أن تكون تلك الكلمة التي نطقها بها المتكلم مستعملة أو مهملة، إن "المرء إذا قال كلمة لا معنى لها فهي كلام عند دي سوسور لأنها عمل فردي فحسب"(١٨).

---

١٦- **مناهج البحث في اللغة**، ص ٣٣.

١٧- Ferdinand de Sassure, *Course in General Linguistics,* London,1966, p.78.

١٨- **مناهج البحث في اللغة**، ص ٤٤.

ومن هذين المفهومين يتضح أن اختلافهما يعني اختلاف المنهج، وهذا الأساس الوحيد الذي يمنع بشكل قاطع إطلاق النص الغربي على النص العربي. وهذا المنهج السائد في التراث الغربي الذي نال أهمية قصوى عند الباحثين شرقا وغربا أصبح عُمْدَةَ مدرسةٍ سويسريةٍ أقامها أبو اللسانيات الحديثة فرديناند دي سوسور، ومن ثم رأى جل الباحثين اللغويين الحِداث أن اللغة تعني غير ما يعني الكلام، والفضل في ذلك يعود إلى دي سوسور الذي ميز بين الأداتين اللغة والكلام، ورغم اعتماد أحدهما على الآخر يرى أن ذلك لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماما، فاللغة تكون نتاج انطباعات جماعية، أما الكلام فإنه يكون نتاج انطباعات فردية (شخصية)، ويرى كذلك أن اللغة نظام من الإشارات (System of signs) التي نستعين بها على التعبير عن الأفكار والخواطر والمشاعر والأحاسيس، وعلم اللغة جزء منها، فالإشارة هي ذات طبيعة اجتماعية تحتوي الفرد والمجتمع في مدرسة دي سوسور، ومن ذلك عادت الإشارة اللغوية تدرس دراسة فردية واجتماعية(١٩). وصار النص مكوَّنا من الإشارات (الشفرات) اللغوية التي تتخذ لها الوجود من خلال تجمُّع ذاكرتي الفرد والمجتمع، ما يختزن في ذاكرة الفرد (القارئ/ المؤلف) يكون مأخوذا من ذاكرة الجماعة (المجتمع) بطريقة واعية أو غير واعية على اختلاف أحوال المتلقي واستفادته منها، يقول دي سوسور: "فاللغة ضرورة إذا أريد للكلام أن يكون مفهومه يحقق الغاية المتوخاة منه، ثم إن الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة، والكلام يأتي أولا من الناحية التاريخية... فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات، وأخيرا يكون الكلام هو السبب في تطور اللغة: فالانطباعات التي نحصل عليها من الإصغاء إلى الآخرين تتجمع فتؤدي إلى تحوير السلوك اللغوي عندنا. فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع أن اللغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماما.

اللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين: ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع"(٢٠).

هذا الفرق السويسري بين اللغة والكلام يحملني على القول: إن المقصود من التراث الغربي غير ما هو مقصود من التراث العربي.

يقول الدكتور سعيد حسن بحيري عندما يتصدى لشرح ثنائية اللغة والكلام والعلاقة بينهما:

---

١٩- **علم اللغة العام**، ص ٣١-٣٨.

٢٠- المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.

"فاللغة على كل حال عند دي سوسير وحدة كلية من دراسة الصور المخزونة في ذاكرة مستخدمي هذه اللغة، هي مستودع يضم صور العلاقات المخزونة في عقول هؤلاء الأفراد. ولا شك أن ملامحها (أي ملامح اللغة) وخصائصها موجودة بالفعل في أذهان المتحدثين بها. أما الكلام فهو الأداء الفعلي الملموس للغة من قبل الفرد، وهذا الأداء نفسي واجتماعي معا، ويحدث نتيجة لتأثر السامع بموقف معين. الكلام ـ إذن ـ هو الصورة الملموسة للغة، وهو الذي يستمد منه اللغوي دراسته لكي يصل إلى الصور الذهنية في عقول المتحدثين باللغة"(٢١).

ومن ثَمَّ خرجت الجملة العربية من نطاق ثنائية اللفظ والمعنى، ودخل الكلامُ مجالَ النص حيث لا ينتهي الأمر إلى الصورة الحرفية المكتوبة أو المنطوقة بل إنه أخذ يشمل جملة أوضاع التعبير الشكلي والمعنوي بما أنه يعود بعض منه إلى الحظ الفردي، ما سماه سوسور بالكلام، وإلى الحظ الجماعي، ما سماه باللغة. ولعل الثنائيات التالية تبسط لنا تفسير القول:

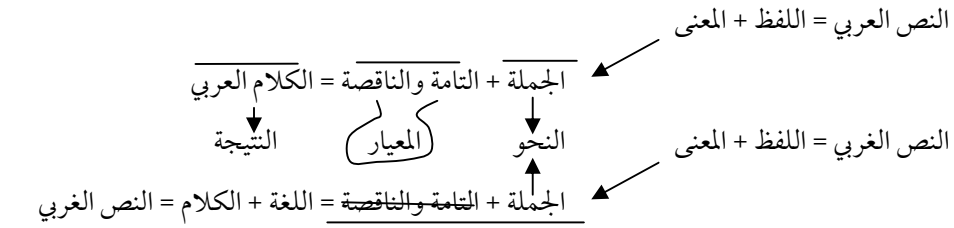


النص العربي يكون نتاج عملية التأثير والتأثر، ويحمي "النص" من فوضى "اجتياح حدود النص"، ويعني ذلك أن النص العربي يتمركز حول دوائر لغوية وترتكز عليها لكن النص البينصي (التناصي) يتحول في نهاية الأمر إلى فوضى "اجتياح حدود النص" لتعديها إلى حدود أخرى. ولذلك يكتب دريدا(٢٢) في بحث له بعنوان: "الحياة على الحدود"(*Living on Border lines*):

---

٢١- سعيد حسن بحيرى، **علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات**، مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ٦-٧.

٢٢- جاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م) فيلسوف فرنسي تفكيكي معروف من مواليد الجزائر، هاجر إلى فرنسا ١٩٥٩م، وصار محاضرا في جامعة السوربون (١٩٦٠-١٩٦٤م). وقد طور نظرية نقدية معروفة بـ: إعادة التركيب/ التفكيك/ التقويض (*Deconstruction*)، إنه أبدع هذه الكلمة في استضاءات أعمال هيدجر وهوسرل. يحسب دريدا من كبار نقاد ما بعد البنيوية (*Post-structualism*) ويعد كذلك النموذج الأمثل للتداخل الكامل بين الفلسفة والنقد الأدبي، يبدو من أعماله ونتائجه أنه ناقد يتعامل مع النقد كفيلسوف، وفيلسوف ينقل مقولاته الفلسفية إلى الدراسات الأدبية. انظر: Richard J. Lane, *Fifty Key Literary Theorists*: pp. 73-77. Routledge Taylor & Francis Group New York and London 2006.

"ما حدث، إذا كان قد حدث، هو عملية اجتياح (debordement) أبطلت كل هذه الحدود والتقسيمات وأرغمتنا على توسيع المفهوم المتفق عليه... ظل يسمى في تسمية "نصا" لأسباب استراتيجية – "نص" لم يعد منذ الآن جسما كتابيا مكتملا أو مضمونا يحده كتاب أو هوامشه، بل شبكة اختلافات، نسيج من الآثار التي تشير بصورة لانهائية إلى أشياء غير نفسها، إلى آثار اختلافات أخرى. وهكذا يحتاج النص كل الحدود المعينة له حتى الآن..." (٢٣).

ما يهمني هنا هو بيان الفرق بين علاقة اللفظ والمعنى بالكلام وبين علاقتهما بالنص، تلك العلاقة في الأولى تعني العلاقة المعجمية النحوية الوظيفية، وكذلك العلاقة الدلالية التي تنشأ من ربط الجمل بعضها مع بعض آخر لا تعود إلا جانبي الكلام: المعنى والمبنى.

بينما تلك العلاقة المعجمية النحوية الوظيفية في الثانية فإنها ترجع بالذات إلى مواقع خارج النص، تلك المواقع تشير إلى أنماط غير لغوية تصبح كيانات النص أخيرا. ومن أجل ذلك يقال عن الجملة العربية إنها تتكون من الشظايا اللغوية، وها هي موجودة مسبقا، فالكُتَّاب الحِداث لا يقومون بإيجاد اللغة والمعنى بل إنهم يقومون بتصوير المعنى وصياغة الصورة ونسج الدلالة، وفي ذاك الأمر هم يتفاضلون ويتفاوتون فيما بينهم، بينما يقال عن النص الغربي إنه ليس إلا جزءا من السابق، ولو لم يكن السابق لما كان اللاحق، وهذا النص الحاضر (اللاحق) يتمخض من النص السابق (الغائب) بطريقتين: الطريقة المباشرة، الطريقة الواعية والشعورية. والطريقة غير المباشرة، الطريقة غير الواعية واللاشعورية، وهذه القضية اضطلع بها القدماء العرب ضمن دراساتهم النقدية حول السرقات الأدبية، وذلك، لأن المعاني لا تكون ملكا خاصا بفرد دون آخر، بل إنها على ضوء مقولة الجاحظ النقدية تكون مطروحة في الطريق أمام الجميع ليختاروا منها ما يشاءون حسب مقتضيات الضرورة ودواعي الحاجة.

"ثم اعلم ـ حفظك الله ـ أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصَّلة محدودة"(٢٤). ويقول كذلك عند تعرضه لمشلكة اللفظ (المبنى) والمعنى: "وذهب الشيخ (أبو عمرو الشيباني) إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. وإنما الشأن في إقامة الوزن،

---

٢٣- عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه دراسة في سلطة النص**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٧٦.

٢٤- أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، **البيان والتبيين**، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج ١، ص ٧٦.

وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"(٢٥).

فأخذ صَنْعَة التداخل والتلاقح والتمازج في الكلام، وأن ما هو موجود ليس بجديد، كل كلام قد قيل، وكل شيء قد وُصِفَ، ما يقوم به المحدِث هو إعادة ترتيب ذاك الرماد القديم، وأشار إلى ذلك كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى: (٢٦) [الخفيف]

مـــا أرانــا نَقُـوْلُ إلا مُعَـــاراً    أو مُعاداً مِنْ قَوْلِنا مَكْرُوْراً

فلم يعد باستطاعة المحدثين التوصل إلى معان لم يسبقهم إليها القدامى، ومن ثم لم يكن بد من الأخذ والتقليد والمحاكاة والاحتذاء والاقتفاء والاقتباس المباشر واللامباشر وهلم جرا. ومن أجل الاشتراك في المعاني ذهب البلاغيون والأسلوبيون إلى أن التداعي بين المعاني والدلالات لا يعتبر سرقة. يقول القاضي الجرجاني عند تسلل كلامه إلى المعاني المشتركة والمتداولة: "فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطيء بالحجر والحمار، والشجاع الماضي بالسيف والنار، والصب المستهام بالمخبول في حيرته، والسليم في سهره، والسقيم في أنينه وتأمله، أمور متقررة في النفوس، متصورة للعقول، يشترك فيها الناطق والأبكم، والفصيح والأعجم، والشاعر والمفحَم، حكمتَ بأن السرقة عنها منتفية، والأخذَ بالاتباع مستحيل ممتنع، وفصلتَ بين ما يشبه هذا ويباينه، وما يلحق به وما يتميز عنه، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع؛ فوجدتَ منه مستفيضا متداولا متناقلا لا يعد في عصرنا مسروقا، ولا يحسب مأخوذا، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به، وأوله

---

٢٥- أبو عثمان بحر بن عمرو الجاحظ، **كتاب الحيوان**، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج ٣، ص ١٣١-١٣٢.

٢٦- هو كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المخضرم، عاصر الجاهلية والإسلام، وعايش في كل منهما ردحا من الزمن، هو الصحابي الجليل المشهور بأبي عقبة كعب بن زهير... وقد جاء في **اللسان**: وليس في العرب سُلْمَى بالضم غيره. يقول ابن الأعرابي: كان لـ: زهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعرا وخاله شاعرا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. فالشعر المذكور في **ديوانه** كالتالي:
"ما أرانا نقول إلا رجيعا    ومعادا من قولنا مكرورا". انظر: صنعة أبي سعيد السكري، **ديوان كعب بن زهير**، شرح ودراسة: مفيد قميحة، دار الشواف للطباعة والنشر، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص ٦٦.

للذي سبق إليه"(٢٧).

فلا أرى أحدا من القدامى من وجَّه هذا الأخذ والتقليد أو الاحتذاء والاقتفاء أو الاقتباس والتضمين إلى القرآن الكريم حيث قام بمحاولة إثبات النص القرآني من خلال العلاقة النصية التفكيكية، وعلى العكس تماما قد اتفقت الأمة على أن القرآن الكريم كتاب منزَّل من ربِّ العالمين، ولا شريكَ له أحدٌ فيه. عندما يلاحَظ "النص القرآني" على ضوء العلاقة التناصية بين النصين: النص الأول والنص الآخر، النص السابق والنص اللاحق، النص الغائب والنص الحاضر، سواء أتكون تلك العلاقةُ جليةَ الصورة نحو الاقتباس أو تكونَ خفيةَ الصورة نحو التلميح، يلزم القول بأن القرآن الكريم نص متداخل ونص متقاطع مع نصوص أخرى، وكذلك لا استقرار للنص القرآني أصلا لابتعاده عن الانغلاق الجزئي والكلي، اللفظي والمعنوي، وبالأخص إذا أُخِذَ ذلك النصُّ في الاعتبار من منظور النص التفكيكي، وذاك الأمر يكون بمثابة إهلاك وجود "النص" المقدس من الأساس لإرجاعه إلى التفكيكية، وتحويله إلى اللاتمركزية، وإحالته على الدلالات الناتجة من جهد التلقي والشرح الثقافي والتفسير الاجتماعي النفسي اللغوي.

صلح القرآن الكريم (النص القرآني) أن يسمى بـ "النص"، ولكن له مركزية تدور حولها شفراته اللغوية ودلالاته غير اللغوية، ولكن عند استعادة نصية النص التفكيكي يعود الأمر برمته إلى البينصية (التناص)، بينما استعادة نصية النص العربي (غير التفكيكي) يقتضي بقاء النص على مداره، والفلك الذي يدور فيه ذاك النص هو "الجملة".

فالقرآن الكريم "جملة" لتركُّبه من الكلمات والمفردات، وتكوُّنه من الجمل والتركيبات. والقرآن الكريم "نص" لنسجه من الدلالات المترابطة والمتراصفة والمتماسكة والمتوافقة، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. إلا أنني أقول إن نصية النص القرآني لا تحسب من كيانه اعتبارا ولا حقيقة، وهذا الفارق الجوهري الذي يميزه من النص الغربي.

اللفظ + المعنى ← الجملة + التامة والناقصة = الكلام العربي

اللفظ + المعنى ← الجملة + التامة والناقصة = النص الغربي

٢٧- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١٦١.

فحد النص لا يعتمد أصلا على اللفظ والمعنى بل إنه يشمل كل العناصر التي تتدخل في تغذية المعنى والدلالة فوق صياغة اللفظ ونسج المعنى المعجمي (اللغوي)، ولذا، تخلى النص من الجسدية الموغلة عند القدماء، لأنها ما كانت إلا مركز البنية اللغوية (الجملة القاموسية المركبة من اللفظ والمعنى)، وأصبح النص رمز أدوات عرفها النحاة بالسياق أو القرينة أو الشاهد أو الحال وما إلى ذلك. وشرحوا أنه نص لا يتفرع إلا إلى قطيعي اللفظ والمعنى. أما العوامل الأخرى التي تفيد دلالته فإنها ليست من مكوناته لخروجها من طبيعة اللفظ (المعجم)، ولكنها هي التي تُفْرِغُ اللفظ في قالَب معناه ودلالته ليكون صالحا للتعامل معه.

وهذا هو المنهج الأساسي لدراسة وتحليل النص القرآني. فالعلائق غير اللفظية فيه من المناسبات غير اللغوية وشأن نزول الآيات والسور ودلالات القصص وتصوير روابط بعضها مع بعض ومواقع صور البيان فيها وتنوع أساليبها... كلها تعني أنها ليست جزءا من النص القرآني بل إنها بمثابة مساعدات معنوية للإنسان العاجز عن درك أسراره كليا.

أما النص الغربي فقد تحول منهجه بصفة أساسية من تحنيط لفظي إلى تحنيط دلالي، هذه الأجزاء التي تتعلق بما في خارج النص أخذت تعتبر جزءا من النص، بمعنى أن النص لم يبق مجسدا بين اللفظ والمعنى المعجمي (اللغوي) بل إنه صار فسيفساء[٢٨] من المقتطفات الشعورية واللاشعورية، المقتبسات اللفظية والمعنوية. هذه المقتطفات اللاشعورية والمقتبسات المعنوية لا تدل إلا على أصل أصول النص وهو الماضي الذي يتفرع إلى النمط التاريخي والثقافي. انطلاقا من هذه النقطة شرع يقول دعاة النص الحديث: إن هنا ما من نص إلا وهو مُنْتَجُ نص آخر، وهذه السلسلة بدأت تعرف فيما بعد باللاتناهي، وسمى دريدا هذه العملية المتفاعلة داخل النص أو النصوص بالتفكيك الذي يعني الانفتاح الكلي للنص مقابل الانغلاق المحض. يقول الدكتور عبد العزيز حمودة: "فالانتشار هو الآخر نقيض الإغلاق الذي ترفضه التفكيكية كنقطة ارتكاز أساسية نحو لانهائية الدلالة، لانهائية القراءات، ثم الانتشار. إن التفكيك يرفض وحدة المعنى واكتمال الدلالة ويستبدل بهما الانتشار، حيث لا يوجد معنى ثابت أو مكتمل، وحيث يؤدي اللعب المستمر للمدلولات إلى انتشار المعنى وانفجاره. فعل ذلك رولان بارت في تفكيكه لقصة بلزاك

٢٨- فسيفساء: قطع صغيرة من الأحجار والمعادن الكريمة تُنَسَّقُ في لوحة فنية جميلة. فالعملية الفسيفسائية تشبيه لمعنى "النص". انظر: **المعجم الوسيط**، قام بإخراج تلك الطبعة إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، وأشرف على الطبع حسن علي عطية، محمد شوقي أمين. القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص ٦٨٨.

حيث يعيد النظر في تحديد النص وإغلاقه، ليؤكد أن وظيفة الناقد التفكيكي أن يحقق تشتيت المعنى وانتشاره المستمر. وفعل ذلك هيليس مللر في قراءته لرواية هاردي حيث يبحث عن كلمة مفتاح ليبحث في جذورها الإتيمولوجية، مما يؤدي إلى فتح النسق المغلق للغة أمام متاهة التشعيب اللانهائي وصعوبة احتواء النص داخل صيغة دلالية وحيدة، بل يصبح كل تفسير إعادة تشكيل للنص داخل هوة يخلقها القارئ"(٢٩).

فالنصية في سياق البنيوية تعني منتَجا مغلقا، وهو "نسق نهائي يمكن تحليله وتفسيره في ضوء علاقات وحداته داخل نسقه الأصغر (النص) بعضها ببعض، وفي ضوء علاقته كنسق بالنسق الأكبر أو نظام النوع الذي ينتمي إليه ويحدد قواعد تشكيله"(٣٠). والنص القرآني نص تشريعي، له معانٍ ودلالات لا يتخطاها، وليس بمستطاع أحد أن يستوعبها، لأنه كلام أزلي لله الواحد الأحد الصمد.

إن النصية التفكيكية والتناصية كلتاهما تعارضان النص القرآني، لأنهما تقضيان على المركزية والأصالة للنص، وتقرران تشكيلا مفتوحا أي غير مغلق ولانهائي، في حالة تكوُّنٍ مستمرة، حاملا آثار نصوص سابقة للنص الجديد، والنص بهذا التوجه المفتوح يتحول إلى اللاشيء، وهو يعني الجدلية التائهة التي تتحقق من خلال إعلان موت المؤلف، أي هدم سلطته وتقويض سيطرته على النص، وهذا التهديم والتقويض والتفكيك يجعل النص منوطا بالقارئ لأخذه واستفادته من عقلنة ما بعد الحداثة، ومن ثَمَّ تقرر أن موت المؤلف يعني ولادة القارئ، لأن المؤلف لا يؤلف إلا بعد أن يقرأ، فصياغة النص الجديد لا يعني سوى تفجير السابق وتنظيمه، يقول جرام علن Graham Alien:

"المعنى في النص وفقا لما رآه دريدا من الكتابة هو تفجير وتوزيع معنى موجود مسبقا"(٣١).

ومن هذه العناصر يتمخض مفهوم "التناص" أو "البينصية"، يقول بارث(٣٢):

---

٢٩- **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، ص ٣٩٠.

٣٠- عبد العزيز حمودة، **المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية**، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٤٥١.

٣١- Graham Allen, *Intertextuality*, London and New York, 2nd edition, 2011, p 65.

٣٢- رولان بارث (١٩١٥ـ ١٩٨٠/ ١٩٨٥م) هو قدوة الحداثيين العرب، نشأ في بايون وباريس. كان حداثيا (بنيويا) ثم تحول إلى التفكيكية بعد أن شاهد تناقضات ومشاكل بنيوية أدبية. نال شهادة في الدراسات الكلاسيكية من جامعة السوربون سنة ١٩٣٩م، وبعد الحرب العالمية مباشرة درس في جامعتي بوخارست والإسكندرية. ودرس منذ عام ١٩٦٠م في الكلية العملية العليا في باريس وفي سنة ١٩٧٦م أصبح أستاذا في علم السميولوجيا الأدبية في كوليج دي فرانس. توفي رولان بعد أن صدمته سيارة وهو يعبر الشارع المواجه للكوليج. انظر:
*Fifty Key Literary Theorists*: pp. 15-19.

"والآن نحن نعرف أن النص ليس مجموعةَ كلمات تقدِّم معنى لاهوتيا مفردا ("فيكون ذاك المعنى" رسالة المؤلف ـ الإله) بل إنه فراغ متعدد الأبعاد، تتمازج وتتصارع داخله مجموعة متنوعة من الكتابات غير الأصيلة (لا يوجد بينها نص أصلي/ مرجعي). إن النص نسيج من المقتطفات (الاقتباسات المباشرة وغير المباشرة) المأخوذة (المستمدة) من مراكز ثقافية عديدة"(٣٣).

قضى دريدا (Derrida) على مذهب دي سوسور اللساني البنيوي الاجتماعي، واستبدله بالتفكيكية، ويرى أن اللغة والكلام وإن كان أحدهما انطباعا فرديا، والآخر انطباعا جماعيا، ولكن المعنى الذي يعطيه الكلام (النص) ينبعث من العلاقات المتوطدة بينه وبين أخواته، وسمى دريدا (Derrida) هذه العملية بالاختلاف/ الإرجاء: قصد دريدا (Derrida) بذلك أن الكلمة تدل على المعنى من خلال تلاحق وتلازم العلاقات النحوية (الإعرابية) اللغوية، والعلاقات السياقية غير اللغوية (النصية)، وعلى ضوء سمة التداخل غير اللغوي في الكلام صار النص مسمى الشفرات المعجمية وغير المعجمية، ومن ثم عاد النص يشمل الكلمة، ثم الفقرة، ثم الكلام حتى الكتابَ كلَّه، وإذا جاوز مفهومُ النص حدودَ الكتاب فإنه يعني العلاقات النصية التي تُفْرِغُ النصَّ في قالَبٍ من القوالب اللفظية والمضمونية، وتلك العناصر هي التي صرحها باختين بـ مصطلح "الحوارية"، ومن أهم مباني الحوارية "التعددية"، وسمت جوليا حوارية باختين بـ التناص، انطلاقا من التعددية الواقعة فيها، وعبرت عنها قائلة:

"كل نص يصاغ (يكوَّن ويُصنَع) مثل فسيفساء (مركَّبٌ من عناصر مختلفة) من الاقتباسات (السابقة، النصوص السابقة)، فكل نص (لا يعنى إلا أنه) امتصاص (تحول/ مستعار) من (النص) الآخر"(٣٤).

يقول الدكتور محمد خير البقاعي: "إن كان الفضل في توجيه نظر نقد إلى سوسور وجناساته anagrammes يعود إلى جان ستاوروبنسكي J. Starobinski (١٩٦٤م) فإن جوليا كريستيفا هي التي أرست في الاستعمال مصطلح "التناصية": لكي تعرض الحس الأساسي الذي يبدو أنها استوحته من باختين في دراساته عن دوستويفسكي Dostoievski (١٩٦٣م)، ورابلي Rabelais (١٩٦٥م). وهي تستند في مبدئها "السيميائية الإقحامية" على سوسور كما تستند على باختين لكي تركز على الطبيعة الاقتباسية

---

٣٣- Roland Barthes, *The Death of the Author*, translated by Stephen Health, Fontana Press London, 1977, P. 146.

٣٤- Julia Kristeva, *Desire in Language: A Semiotic Approach to Literature and Art*, Columbia University Press, New York, 1980, P. 66.

للنص الأدبي: كل الخطاب يكرر خطابا آخر، وكل قراءة تتكون هي نفسها مثل خطاب"(٣٥).

ولم تنل "التناصية (البينصية)" مكانة بارزة إلا في مدرسة التفكيكية عند دريدا وبارث، ومن تلاهما، ثمة أخذت "التناصية" شكلا تقويضيا، ولم تترك لأي نص أي سلطة، بل بلغت إلى أقصى الحد في تفكيك النص دون الرجوع إلى أصله ومصدره أو دراسة شرعية التأثر والتأثير فيه...

ثم أخذ يوسعها الباحثون فجلبوها إلى البحث عن المصدر للنص، أو دراسة التأثر والتأثير بين النصين السابق واللاحق، أو الحضور الفعلي للنصوص بين النص مثل الاقتباس والتضمين والاستشهاد وما إلى ذلك. المهم إن "التناص" في بناء أسسه يعود إلى تكوين النص، ويعني ذلك أن النص لا وجود له إلا بين النص أو النصوص، ولا وجود للقصيدة إلا بين القصيدة أو القصائد، ولا وجود للشعر إلا بين الشعر أو الأشعار، يقول هارولد بلوم:

"لا توجد أفكار كثيرة يمكن أن تكون أصعب في دحضها من فكرة أن النص الشعري مكتف ذاتيا وأن له معنى يمكن التأكد منه، أو معنى لا يحتاج للإشارة إلى نصوص شعرية أخرى. ففي داخل كل قارئ شيء يريد أن يقول: "هنا قصيدة وهناك معنى، وأنا على يقين إلى حد معقول من أنه يمكن الجمع بين الاثنين".لكن، لسوء الحظ، القصائد ليست أشياء بل كلمات تحيل إلى كلمات أخرى، وتلك الكلمات الأخرى تحيل إلى كلمات أخرى، وهكذا... إن أي قصيدة، هي بين ـ قصيدة، وأي قراءة لقصيدة هي بين ـ قراءة. إن القصيدة ليست كتابة، بل إعادة كتابة، وعلى رغم أن القصيدة الجديدة بداية جديدة، فإن تلك البداية هي تكرار لبداية"(٣٦).

فلا يوجد ثمة ما يمكن أن نسميه قصائد، الموجود هو بينقصائد فقط ـ لا يوجد شاعر بل ما يوجد هو "بين ـ شاعر". ولقد وضع أصحاب الفكرة البينصية أن "النص" هو بين ـ نص بالضرورة، لعدم وجود نص مغلق ونهائي، فانطلاق النص كـ: هذا يعني وجوده بين نص آخر والآخر في غيره إلى ما لا نهايته له، ينتهي الأمر أخيرا إلى أن "النص" لا وجود له إلا بين نصوص... وهذا مما يؤدي إلى القول: إن التناص هو الذي يضع الأسس لقيام النص. وربما تكون تلك العلاقة بين النص والتناص بضرورة

---

٣٥- التناصية L' intertextualité: ٩٧. لـ: ليون سمفيل Léon somville. ضمن "آفاق التناصية" المفهوم والمنظور، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

٣٦- عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه دراسة في سلطة النص**، ص٢٠١. وانظر: **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، ص ٣٦٨.

تحقق البينصية حتى يتحقق قيام النص، سببا في الاستخدام المتأخر لكلمة "نص" بمعنى "بينص"(٣٧).

طبيعة النص العربي تختلف بأسرها عن طبيعة النص الغربي، النص العربي مهما يكون فحوى البُنَى الذهنية والنصية إلا أنه يلازم ظواهر لغوية، أما ظواهر سياقات غير لغوية فالنص العربي يتدارس تلك العلاقات (الظواهر) ضمن الحقل الدلالي عند الحاجة إلى تعرض تغيرات وتبدلات في المعنى، نتيجة لذلك، فكل العناصر والظروف أو المناسبات والأحوال التي تؤدي دورا أساسيا في تحديد معنى النص ودلالته تعود أولا وأخيرا إلى حدود اللفظ (الكلمة) ومنه إلى الجملة التامة والناقصة، فالكلام، فالنص... هَبْ أنه سُلِّمَ بأن تلك المصطلحات قد اقتصرت على البناء النصي (التناصي)، فما دور ثلاثة أقطاب بُنِيَ عليها منهج "التناص" وهي: المؤلف والسياق والنص. لأن "التناص" في إفادة نتائجه يعود إلى رصد أدوات ماركسية (العلاقة الجدلية بين الإبداع الأدبي والبنية التحتية...) ونُظُمٍ بنيويةٍ (العلاقات المنغلقة واللاتتابعية...) ونُظُمٍ ما بعد الحداثة (دينامية التلقي والتفكيك والعلاقات المنفتحة واللاتناهية)، فالنص من منظار "التناص" يستلزم أن يكون مؤلَّفا لمؤلِّف، ويستوجب أن يكون مستعمَلا في سياق مناسب بحيث يكون النص المؤلَّف يكون نتاج حركات متوافقة ومتعاقبة.

عندما يأتي الحديث عن كلام الله العلي القدير، وهو القرآن المجيد الذي أسماه الله تعالى بـ الكتاب في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٣٨)، فلا يصح أبدا تطبيق "النص" بمفهومه الحداثي (التفكيكي) عليه!؟ لأن "النص" ما بعد الحداثي محكوم بـ: "التناص" أو "البينصي"، ويحتاج في سلوكه وتحليله إلى تشابك الوسائل اللغوية وغير اللغوية واجتماعها في تحييز كيانه، وعندما تجتمع تلك العناصر فيه، فتُحْدِثُ دلالات نحوية ودلالية/ معنوية، وتداولية(٣٩) وترابطية لتقديم تفسير كامل للنص في مدرسته الجديدة (دريسلر Dressler ودي بيوجراند De Beaugrande)، إنها تتمثل المعايير التي يجب أن توجد لتحقيق

---

٣٧- **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، ص ٣٦٨.

٣٨- سورة البقرة، الآية: ٢.

٣٩- يضم الجانب التداولي pragmatic aspect دور المتلقي والموقف والمعلومات التي يقدمها النص وأشكال السياقات وكيفية التواصل وغير ذلك مما يتعلق بالعلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات... يرى فاينرش أن المعنى يتحقق من خلال وحدة النص وهي تتحقق عبر تماسك المعلومات المطروحة بعضها ببعض، وهذا التماسك يعني سياقات دلالية تقدَّمُ من خلالها تلك المعلومات، إنه مصطلح مأخوذ عن علم الكيمياء. انظر: روبرت دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٨٦.

الاكتمال النصي له[٤٠]:

- الربط النحوي cohesion وهو التماسك بين الوحدات اللغوية (العلامات اللغوية) والكلمات المفردة التي يتكون منها النص.
- الربط الدلالي/ الاتساق coherence وهو الربط بين تصورات عالم النص.
- القصدية intentionality وهو تعبير عن هدف النص.
- المقبولية/ القبول acceptability وهي تتعلق بموقف المتلقي الذي يقر أن المنطوقات اللغوية تكون نصا متماسكا مقبولا لديه.
- الإخبارية وهي تتعلق بجدة النص أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدم توقعها.
- الموقفية/ مراعاة مقتضى الحال situationality وهي تتعلق بمناسبة النص للموقف.
- والتناص intertextuallity وهو يختص بتبعية النص لنصوص أخر أو تداخله معها.

هذه الخصائص تشكِّل مفهوما للنص المعاصر، ولا يعني دريسلر ودي بوجراند ضرورة تحقق هذه المعايير السبع في كل نص اللهم إلا أن يعتمد الاكتمال النصي في رأيهما على تحقق هذه المعايير السبعة. ولذلك عرفا النص في ضوء هذه المعايير قائلين: إنه "حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير، وهي الربط والتماسك والقصدية والمقبولية والإخبارية والموقفية والتناص"[٤١].

فـ: "التناص" محفوف بمظاهر يستمد النص وجودَه منها، ولذلك ترى جوليا النص إنتاجية "وهو ما يعني:

أ- أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع (صادمة بناءة)، ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

ب- أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"[٤٢].

وهذا المفهوم للنص يذكرني التوجه الباختيني في الدراسة الأدبية بأنه تقوم بطابعها التاريخي،

---

٤٠- **علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات**، ص ١٤٥.

٤١- **علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات**، ص ١٤٦.

٤٢- جوليا كريستيفا، **علم النص**، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، المغرب، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص ٢١.

وليس له بد من التقاليد والتدمير واللغة والكينونة والتاريخ والثقافة وما إلى ذلك. ومما سبق عن "النصية" أو "التناصية" يبلور عن سمات تالية يقوم "التناص" من خلالها برسم "النص الجديد".

- النص في منطقة البين ـ بين
- اللامرجعية/ اللاتمركزية
- تقويض الأصالة وتهديم الثابت
- إنتاج الجديد من القديم
- التوالدية
- التواصلية
- التناسلية
- المزج بين القديم والجديد
- الرماد الثقافي والتاريخي
- اللعب الحر للدالات والمدلولات (الدلالة)
- التحولات العائمة
- اللانهائية
- انتفاء التفسير الموثوق
- الحضور والغياب
- الاختلاف والإرجاء
- أثرُ أثرٍ لأثرِ أثرٍ آخرَ
- النص المفتوح
- اللاإبداع/ التفكيك
- المراوغة والتحول

أضحى "التناصُّ" مفاد عدة إنتاجات نقدية ومشارب منهجية مثل بنيوية، وتفكيكية، وسميائية وغيرها، ومن أجل صلة وطيدة بين الإنتاج الذي اكتسب شرعية "التناص" لدى جوليا وبين تفكيك الميتافيزيقا لدى دريدا تعتبر مدرسة "التناص" من إنتاجات أبعاد المدرسة التفكيكية أخيرا.

ما دامت هذه المفردات السابقة رمزا للتجربة التناصية ـ العقلية الصرفة، إنها صارت مقصد "التناص (البينصية)"، وهي التي تشخِّص النص وتكشف عن جمال إبداعيته وكمال ابتكاره، ولا يصح أن يكون "النص" معزولا عن "التناص".

خصائص النص القرآني ترفض أن تخضع لسمات النص التفكيكي، بل إنها لا تسمح تماما تلك المعطيات التي يتمخض منها تصور التناص، لأن جميعها تتعلق بالنص البشري، ولا يمكن أن يتخلى "النص" عنها ولو للحظة، لأنها هي المعايير التي تحقق التكامل النصي فيه، إذا خلا النص من بعضها يصير عائما لاختلال اتساقه واتزانه، وينصرف إلى اللاشيء المطلق. فكلمة "النص" منذ غابر الزمان كان يطلَق على القرآن الكريم، فيقال له: إنه كلام الله تعالى، ويسمى لدى مفسري آياته وشارحي بُنَاه ومبيني معانيه ومستنبطي الأصول منه بـ: "النص"، ومنه يقال: نص قرآني، ملفوظ إلهي، كلام إلهي... فمن مثل هذه اللقطات المعجمية يتبادر إلى الذهن، أن النص المعاصر كما يوصَف بالمواصفات النصية، كذلك يمكن أن يأتي النص القرآني على شاكلته، ويصح أن تتلاءم معه معطَيات التداخل والتناص.

فـ: "التناص" يعني أن النص الجديد ليس نصا نقيا خالصا بل إنه من آثار نصوص سابقة، فالنص الجديد يحمل كل الآثار ـ قرأها الكاتب أم لم يقرأها ـ التي تعني أن مفردات النص الحاضر عند تشفيره وتفكيكه تكشف عن وجوهها الأولى ضمن نصوص تلاشت بينها، وبذلك يصبح النص بينصاً، وهو يشير إلى أن هذا النص (الملفوظ) هو نتاج شفرات لغوية يجمعها فضاء وفراغ نصي ينبعث من النص الأكبر وهو النص الاجتماعي أو التاريخي، ومن ثَمَّ يصير كل نصٍّ لاحقٍ نتيجة تسرُّبه إلى نصٍّ سابقٍ وتشرُّبه وتحوُّله منه.

لكن عند إعادة "النص" إلى مضمار هذه المجموعة، يتضح للناظر فيه أنها تتعارض مع النص القرآني لوجوه عديدة، ومن أهمها ما يلي:

ـ التناص يعني التداخل، فليست قصيدة إلا بين ـ قصيدة، وليس شعر إلا بين ـ شعر، وليس نظم إلا بين ـ نظم... فلا وجود للشفرات اللغوية في ذواتها، فكما أنها لا تستقر في اللغة، كذلك لا تستقر في الكلام، والكلمة هي مجموعة علاقات اعتباطية وافتراضية وخيالية وتداولية ودلالية ونحوية وغيرها، فالنص يتسرب في تأطير وجوده إلى التاريخ/ الثقافة/ المجتمع. وكذلك "ينظر هنا إلى النص على أنه محاولة دائمة لتعطيل خاصية القراءة الأحادية الاتجاه وتحريك فعالية التوليد، وذلك على مستويي الدال والمدلول معا، بحيث تبدو الكلمة داخل النص وكأنها تعبر عن أصوات متعددة أو على الأقل تسعى لأن تكون موقع لقاء ثقافات ومواقف متعددة"(٤٣).

فالقرآن الكريم ليس نصا متداخلا مع غيره، إنه ليس كتابا آخذا ولا مأخوذا، وكذلك ليس بين كتاب، وبينص، إنه ليس محوَّلا من غيره ولا إليه، إنه كلام رباني، نزَّله الله على الذي جعل فيه أسوة حسنة للناس، كقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(٤٤).

ـ تلتزم هذه العناصر بالإنتاجية النصية التي تتناسل منها اللانهاية، والنص القرآني لا يصح أن يوصف بالإنتاجية، لأنها ليست آخذة نصوص أخرى، وليست مأخوذة من غيرها. وعملية الأخذ والتلقي تتحقق من خلال تهديم الرماد النصي التاريخي والثقافي، والقرآن الكريم بريءٌ من كل هذه

---

٤٣- حميد لحمداني، "التناص وإنتاجية المعنى"، **مجلة علامات**، ج ٤٠، م ١٠، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/ يونيو ٢٠٠١م، ص ٦٤.

٤٤- سورة البقرة، الآية: ٢٣-٢٤.

الترهات الفلسفية النصية، واحتاط العلماء في إطلاق كلمة "التراث" على القرآن الكريم لئلا يتبادر إلى الذهن الضعيف أن هنا انزياح وتناغم ـ أيا كانت نوعيته ـ بين النص القرآني وغيره، أو ثم شيء من التأثر والتأثير، أو ثمة نوع من الجذب أو الانجذاب بين الطرفين.

ـ لا يمكن إلغاء دور المؤلف حين ولادة النص الجديد، وفي المدرسة التناصية التفكيكية فُرِضَتْ حتمية تصور موت مؤلف النص من حين انتهائه من الكتابة لإبقاء النص نفسه بتقرير ضمان القارئ الفطن (المتلقي المثقف له)، هذه المدرسة النقدية منذ التسعينات تدعو إلى تقويض سلطة الكاتب (المؤلف)، واستبدالها بسلطة النص ذاته.

كون النص القرآني نصا إلهيا يكفل بإثباته أنه ليس تأليفا متقاطعا ومتداخلا، من سمات قدسية هذا النص أنه يتميز بكل لمحاته الفصيحة وصفحاته البليغة، حتى حارت عقول أرباب هذا الشأن أمام جزالته ورصانته. إنه نص إلهي، فيه كل كمال وجمال يستطيع الإنسان تصوره، فلا يمكن فك أجزائه بل إنه نموذج أعلى للنظم بحيث "أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلْقة مفرغة! أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار: نظِّمت حروفه وكلماته، ونسِّقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله، وبدا أوله مواتيا لآخره!!" (٤٥).

ـ دور المتلقي من أهم اللبنات النصية في النص البينصي، لأن التعددية والحوارية والازدواجية في المعنى والدلالة تحدث في النص عبر التداخل، وهذا التداخل يتولد من نمطية التأثر والتأثير الذي يجمع القارئ (المتلقي)، والمؤلف، فكل مؤلف قبل أن يصير مؤلفا يكون قارئا، لذا، فإن المعاني والدلالات الواقعية والخيالية لا تكون إلا مفاد مسبقها. ومن جميع هذه اللفتات والعوارض البشرية فإن النص القرآني بعيد جدا عنها، لأن قضية التلقي مقصور على الرأي الشخصي (الفردي)، يستفيد القارئ من النص وفق مخزوناته الوريثة والحصيلة عبر الخطوط الرأسية والأفقية/ الآنية والتعاقبية والتزامنية والوصفية، ولذلك يقال إن ولادة القارئ موقوف على افتراض موت المؤلف، وظلت مدرسة دريدا/ بارث مشغولة بها.

"إن علماء العرب ذكروا مصطلح "الكلام" وعنوا به "القول المفيد". والإفادة ما يحسن السكوت عليه فيكون مكونا من محكوم ومحكوم به، واشترط ابن مالك وغيره "القصد"،

---

٤٥ـ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، حققه واعتنى به فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ١، ص ٥٢-٥٣.

فيخرج من دائرة الكلام (النص) كلام النائم أو الساهي. والقصد يشمل إيصال المعنى يعرفه المخاطب أم لا، فهذا لا يتحدد إلا باعتبار "قصد المتكلم". قيد القصد من منظار التراث العربي ينفي دور القارئ وسلطته على النص الذي جاءت به المدرسة الغربية عبر أنماط متعددة. فدور القارئ في سياق النصية التفكيكية أو التناصية يظهر من خلال ظاهرة المقصدية التي ذكرها ديبوجراند ضمن معايير النص الأدبي، "ومن هذا الجانب فإن فعالية القارئ يتم قصرها على فهم وإدراك ما هو موجود سلفا من معان في النصوص. والجرجاني يخفف من وطأة تحجيم دور القارئ عندما يميز بين القراء البسطاء الذين لا يفهمون من النصوص إلا المقاصد الظاهرة، والقراء الأذكياء الذين يغوصون في الأعماق لالتقاط المعاني العميقة الموجودة بدورها سلفا في النصوص...

على أن نظرية القراءة المعاصرة التي نشأت وتطورت في ألمانيا وغيرها من المراكز العلمية الغربية حاولت أن تتجاوز هذا المفهوم السابق للمقصدية، فبعضها تحدث عن مقصدية النص، وليس عن مقصدية المتكلم، باعتبار أن النص أصبح مستقلا عن صاحبه. والبعض الآخر تحدث عن دور القارئ الحاسم في تحديد دلالات النصوص، فقد يعمد القارئ إلى إحداث تغيير جذري فيما يمكن أن ينظر إليه على أنه المعنى الأصلي للنص، كما اعتبر البعض الآخر أن المقصدية هي نتيجة لتفاعل حقيقي بين ثقافة القارئ والإمكانيات النصية"(٤٦).

لا يصح أن يفترض كذلك بالنسبة للنص الإلهي، لأنه برئ من كل كيان يجعله موضعَ المرية والشك. فالقرآن الكريم ليس تأليفا أفاده التاريخ والثقافة، ليس كتابا استفاد صاحبه في نسج بنيته من الكتب السابقة، إنه وحي، وليس أكثر من ذلك. رسالة خالدة نزلت لإرشاد الأمة إلى الخير. وإن حُمِلَ معنى التلقي على فهم المعنى وإدراكه من النص ذاته، كما يقال عند الحديث عن أبديته أنه كتاب أنزل لآخر الأمة، وصالح لكل عصر وزمان، كل من يعرف العربية يدرك أسرار آياته المكنونة عند قراءته فيه، للزم عندئذ أن يجوز للقارئ العادي وبالذات القارئ الخارق أن يتصرف في النص، وبالتالي ما يتصرفه هو جزء من النص وهو غائي، ولا يرجع في طموحاته الفكرية العقلانية صاحب الكلام، بل إنه يسيطر على كلامه، ما يعني أن الكلام في منتهاه يسيطر عليه.

---

٤٦- حميد لحمداني، **القراءة وتوليد الدلالة تغير عاداتنا في قراءة النص الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٠٥-١٠٦.

- التذكر والاسترجاع وإعادة البناء والتفسير، هذه الوحدات لا تتناغم مع النص القرآني، إنها عناصر فَهْمِ النصِّ وآليات دَرْكِ المرادِ منه عبر تفاعل السياقات وتداخل المقامات، هذه الترابطية على المستويين النحوي والدلالي تشير إلى استدماج الثقافة والتاريخ والفيزياء والنفس، ما يكتبه المؤلف يكون نتاج ماضيه. ومن الطبع إن القرآن الكريم وحي، نزل بلسان القوم، ليتم إبلاغ الرسالة على الوجه الأتم، تناول الأساليب الجارية والشظايا المألوفة ولكن الإعجاز الذي أثبت أنه ليس من كلام البشر هو وحدته النصية التي تتم بسبكه وحبكه على المستويين: المستوى اللفظي (المقالي) والمستوى المعنوي (المقامي). مع أنه كلام جرت سماته على أهل لسانه، ولكنهم لم يقدروا ولن يقدروا على الإتيان بمثله، وها هو دليل بَيِّنٌ على أن القرآن الكريم نص لا يصح أن يقارن ويوازن مع غيره من النصوص البشرية. وخاصة في البحث عن موازين النصية في النص الإنساني. إن الإنسان مخلوق، والله سبحانه وتعالى خالق لكل ما سواه، وشتان بين المخلوق والخالق. فلا يمكن للبشر أن يجعل النص القرآني موضع مشاركته الفعلية بأن يقوم بفك رموز بنيته وتتبع بنائها العضوي وعقد علاقة بين أجزائه، إن القرآن الكريم ليس فضاء يحتاج إلى ملء فراغاته، إنه كتاب يحوي جميع المعارف التي يحتاج الإنسان إليها، فحضور القارئ في النص بالمعنى الغربي بعيد عن البنية النصية القرآنية تماما.

- تدخل العلوم الاجتماعية والنفسية في تشكيل البنية النصية، فكل نص يكتسب وجوده من خلال معاشه بين المجتمع ويتغير حسب متطلبات الزمان والمكان، وهذا يعني عدم استقلالية النص وعدم استقراريته تماما. فالنص يعيش دوما في حركة الإنتاجية لتواصله واستخدامه أبنية نصوص أخر، والقرآن الكريم كلام ثابت لا يمكن تحديه، ولا يقبل أي أثر، ليس له سابق ولاحق. إنه ليس بنص بنيوي سويسري وليس بنص تفكيكي دريدي، فكذلك إنه ليس بنص متناص ومتقاطع.

تعطي البنيوية للغة فضل إنتاج المعنى خصوصا من وجهة نظر العالم الألسني دي سوسور لتكثفها وتضمنها للمقتطفات القديمة والمعاصرة التي تجعلها ذات وجود جماعي وتلقِّبها بـ: الكلام ليتميز بدوره من لغة الشخص وأدائه الفردي. ولا ترتكز البنيوية في تحويل إنتاج المعنى للغة على مركز خارجها كالمؤلف أو القارئ (المتلقي) أو العوامل الأخرى التي تتآلف منها اللغة ذاتها نحو البيئة والثقافة والتاريخ والجانب النفسي... وبذلك تحكم البنيوية (الحداثة) أن الحقيقة (المعنى) ينتجها العقل المغلق على نفسه.

القرآن الكريم كلام رب العالمين، أنزله الله سبحانه وتعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين مخاطِبًا

إياه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[٤٧] وهذا المخاطب هو صاحب التشريع حيث جاء تفسيره وتوضيحه كمنهج لكل من جاء بعده حتى يوم الساعة. ومن ثَمَّ لا يستند هذا النص إلى العقل الصرف الذي يملك كل التصرفات فيه بل يحتاج في أداء المعنى إلى مراعاة أصول أخر.

أما اتجاهات ما بعد الحداثة فإنها تجعل القارئ (المتلقي) المبدعَ الحقيقيَّ للنص، وهذا يعني أن القارئ له سلطة كاملة أن يتصرف فيه كيفما يشاء ويحيله إلى حيثما يريد. فالنص الثابت في المدرسة البنيوية صار نصا عائما ومتحركا في مدرسة ما بعد الحداثة، وهذا التحرك يعني أنه ليس مجرد نص دون سوابق وأحشاء ولواحق بل إنه نتيجة هذه المكونات والعناصر التي تركِّب وجودَه، فصار النص فيما بعد الحداثة متعددة النص (النصوص)، وهذه الحركة في كيانه قد جاءت عبر التاريخ والزمان، فصارا كيانين نصين كبيرين لسائر النصوص. ومنه يقال: إن النص يكون إنتاج النص الكلي (النص التاريخي والثقافي والاجتماعي)... وعندما ثبت الهيام المعنوي في النص ذاته فاستوجب بذلك أنه عملية مجراة ولانهائية، وصالح للتأويل اللانهائي وقابل للتفكيك.

**الخاتمة:**

وفي الأخير استخلصت من هذا البحث النتائج التالية:

- القرآن الكريم صفة قديمة، وما وردت فيها من المضامين والكلمات هي أزلية، ولا تعدد فيها البتة، لا حقيقة ولا اعتبارا.
- القرآن الكريم كلام الله وحده، ولا يمكن أن يكون كلام محمد صلى الله عليه وسلم ولا كلام مخلوق سواه، حينما نقرأ القرآن الكريم من أوله إلى آخره نراه محكَم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال.
- النص البينصي صفة محدثة (متجددة)، وخاصة إذا كان النص ملفوظًا تفكيكيا، وما يأتي فيه من المضامين والمعاني والدلالات إنها ليست إلا بقايا تاريخية ثقافية اجتماعية بيئية، إنها مأخوذات تراثية، ولها جانبان، أولهما: **الجانب الآخذ**، والثاني: **الجانب المأخوذ، ولالتقاء الجانبين أصبح** النص متعدد التوجهات البشرية، إنها قد تكون حقيقة إذا عاد النص إلى التناص التفكيكي السميائي الذي يعتبر النص مجموعة شفرات لغوية مباشرة و**لا** مباشرة، وقد تكون اعتبارا، إذا عاد النص إلى الحضور الفعلي للنص **بين النص الآخر** مثل الاقتباس والسرقات الصريحة.

---

٤٧- سورة العلق، الآية: ١.

- القرآن الكريم كلام إلهي، إنه صفة من صفاته، وهذه الصفة مانعة من التعددية والحوارية والنصية ما بعد الحداثية، لأنها من علامات الحدوث بطريقة شعورية أو لا شعورية.
- النص الإنساني نص حادث، ويمكن ملاحظة الحدوث في ذلك أن كتابات الإنسان تختلف في سبكها وحبكها وأسلوبها وفصاحتها وبلاغتها ورشاقتها وأناقتها ورصانتها ومتانتها بناء على تغير أحواله، فكل الأحوال التي تطرأ على طبيعته تطعم كتابته صبغتها، حتى في تأليف كتاب واحد يختلف الأسلوب لتغير أحوال الكاتب من لحظة إلى لحظة من طفولة إلى شيخوخة، ومن مرض إلى صحة، ومن حياة إلى موت، ونحو ذلك فضلا عن الكتب العديدة له، وهذا الأمر ظاهر، والقرآن الكريم منزه من كل هذه الانفعالات الطبعية والنفسية والفيزيائية.
- النص في التراث العربي يعني الجملة المجسدة بالنظام النحوي والصرفي، ومن خلال دمج هذين النظامين يتكون المعنى وتحدث الدلالة. والنص في القرن العشرين تجاوز دوائر النُظُم التقليدية، وأصبح بنية كلية، فيها استمرار ومراوغة ومخاتلة ومخادعة، والنص القرآني بريء من هذا الخداع الفلسفي.
- النص البشري يكون نتاج التحول والتحويل، والتحدد والتحديد، والتصير والتصيير، فلا يصح مطلقا أن يكون النص القرآني مصداق هذا المبنى العقلاني. ولأن النص يصبح "أكليشيه" غير المقصودة، المبتذلة لدرجة أنها يفقد طرافته إذا صار متَتَجًا ومتتجًا، آخذا ومأخوذا، مستمِدا ومستمَدا في آن واحد.
- تطبيق "التناص (البينصية)" على النص القرآني يستلزم تطبيق المنهج التفكيكي، وهذا من المحال الباطل لاستحالات تمنع الدمج والإذابة المطلقة بين النص العربي (النص القرآني) والنص الأجنبي (التناصي)، لأن النص في مرحلته المبكرة البنيوية كان ملتقى البنى العقلانية المتجولة بين الزمن الآني والتعاقبي، وفي مرحلته المتأخرة التفكيكية صار إلى الوجود واللاوجود، إلى الوعي واللاوعي، إلى الشعور واللاشعور، إلى التاريخ واللاتاريخ، هذه الثنائيات أصبحت محاور النص ما بعد الحداثي (البنيوي)، ولا يفتأ يذكر "النص" المعاصر على ضوء الأنماط التالية التي لا تتلاءم أبدا في أي جانب من جوانبه مع النص القرآني:

١- نفي الاستقلالية من النص ذاته.

٢- هروب النص من ذاته.

٣- احتياج النص إلى الإعادة والتكرير للبقاء والحياة.

٤- عودة النص في وجوده إلى آثار نصوص قديمة.

٥- انمحاء النص الأول وحلول الثاني محله.

٦- عدم تمكن النص الجديد من إخفاء النص القديم.

٧- استعارة النص وجوده من غيره.

٨- مراوغة النص بين الحاضر والغائب.

٩- فصل النص عن قائله.

١٠- إرجاع النص إلى الأصل.

١١- عدم الوصول إلى أصل النص (النص الأول).

١٢- اعتبار النص أثرا لأثر أثر آخر على ضوء القاعدة السايكولوجية (النفسية).

١٣- استيعاب النص البينصي جميع العلاقات الممكنة بين النصوص.

١٤- الحضور النصي بين النص، سواء أكان نسبيا أم كاملا أم ناقصا، لنص في نص آخر.

١٥- اهتمام النص بالمنهج الوظيفي والتاريخي.

١٦- اعتناء النص بالتأثر والتأثير/السبق الزمني لحد ما.

١٧- إلغاء التمييز بين الاستحسان والاستهجان، بين المقبول والمنبوذ على ضوء معارف البينصية.

١٨- بناء النص على التناقل والتلاقح/التلاقي والتثاقف/التمازج والتداخل/التلاحم والتناص/التماثل والتعالق وهلم جرا.

## Distance of Qur'┐nic Text from Textuality

This article talks about the new forms and aspects of text experimented by several scholars in the twentyieth century. It covers the essential role of textuality, a theory which presumes that there is no new text but every text is vowen with a number of other texts. Hence there is no original or source text; every text inevitably is a kind of representation of different texts.

After Saussurian structural linguistics approaches, textuality moved towards destructuralism. And in the later stages of it, the general text rose to the exalted position, in particular, Kristeva Julia coined the term "intertextulaity" which meant deconstructive textuality.

Although renowned scholars like Barthes and Derrida, known with reference to deconstruction have celebrated this very post-modern

trend which deliberates too preciously on different cases of textuality, all these aspects from the point of view of intertextualism are unfit to be applied to the Qur'┐n.

Keeping this in view, the article endeavors a systemic discussion of the basic fundamentals that in general do not allow the application of the theory of textuality. It suggests respective intertextuality to be applied to the Qur'anic text.

****